

كلمة

الشيخ مصطفى القاياتي^(١)

من كان بطبعه ميّالاً إلى الحرية في الفكر ، والاستقلال في الرأي ،
وكان مع ذلك محباً للانصاف ، راغباً في الاعتدال : فليقرأ هذا الكتاب .
فانه ينمّي فكرته ، ويقوّي شخصيته ، ويزيده بصراً بالنقد ، وعلماً
بالشعر ، ويهديه السبيل إلى فهم الأدب ، والحكم على الشعراء
وجدير بمن نظرفيه أن يكمل علمه ، ويكبر عقله ، لما عرف به
الأستاذ زكي مبارك من سلامة الذوق ، وأصالة الرأي ، وما امتاز به
من بعد النظر ، ودقة الملاحظة ، مع ماله من رشاقة الأسلوب ، ومتانة
التركيب ، إلى غير ذلك من الميزات التي تجعلنا نأمل كثيراً أن يكون
هذا الابن البار اماماً من أئمة الأدب ، وعظيماً من عظماء الأمة .
جعلله الله قدوة لشباننا العاملين ، وأبنائنا الناهضين ، والسلام .

مصطفى القاياتي

٢٥ فبراير سنة ١٩١٩

(١) تفضل المرحوم الأستاذ الشيخ مصطفى القاياتي بكتابة هذه الكلمة لتوضع على
صدر الكتاب فخلّيت بها الطبعة الأولى والثانية ، وكان في النية رفعها من هذه الطبعة
فراراً من الاعتماد على التقرّيط ، ولكن انتقل الأستاذ إلى جوار ربه فرض علينا
في سبيل الوفاء له والبر به ابقاء هذه الكلمة الطيبة مشفوعة بالاعتراف بما كان له من
الفضل والابتهال الى الله أن يسكنه فراديس الجنان .

كلمة نقد

لحضرة الباحث الكبير

الدكتور طه حسين

« أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ، ولكنها قيّمة مُمتعة ، للدكتور زكي مبارك خريج الجامعة المصرية ، تناول فيها شعر عمر بن أبي ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درساً حسناً يسرني أن أهنئه به ، ويسرني أيضاً أن أتهنئ هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب . ولكن الدكتور زكي مبارك وهو شابٌ حادّ الشباب عفيفه ، أسرف في نقد مصعب ابن عبد الله اسرافاً جعله إلى الظلم أقرب منه إلى الانصاف . وليس مصدر هذا الاسراف إلا أنه لم يقدر كما ينبغي اختلاف المثل الأدبية باختلاف المصور والأجيال . وما أحسب إلا أنه عائد إلى هذا النقد فملطّفٌ ما فيه من حدّة ومزِيل ما فيه من جور »

كلمة المؤلف

في الطبعة الأولى

هذه المحاضرات أُلقيت في فبراير سنة ١٩١٩ في الجامعة المصرية على أنها دروس تمرين ، وكنت لقيت من إعجاب الاستاذ الدكتور احمد ضيف والاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار والاستاذ الشيخ مصطفى القاياتي ماحبباً إلى ظهورها في كتاب يتناوله عشاق الآداب . ثم لم أكد أشرع في طبعها حتى كانت النهضة المصرية فكُتب الله لنا أن تمت بسبب إلى الذائدين عن مصر والسودان ، ثم اعتقلت مدة غير قليلة أنكرت فيها كل ما يوحى به الشباب ! ثم عدت من المعتقل ، ونظرت ثانية في تلك الصحائف المطوية ، فرأيت فيها أثراً من آثار الثقة بالنفس ، وعزاً على أن لا يجد نسيم الشباب فضاءً يملؤه بالعزيمة والثبات

واني لموقن أن في الناس من لا يطرب لهذا النحو من البيان ، ولكني لم أكتبه إلا لمن قدّر له أن يدرك أسرار الجمال ، وهدى الله من يحسب أن التأليف لا يصح إلا في الأبحاث التي تشبه بعض الأذهان في الجمود !! وأعلى أجد من الشجاعة الأدبية ما أعيد به طبع

هذا الكتاب مع ما سيقال فيه من مدح وهجاء ! واني لأرحب
بكل كلمة فيها نفحة من النقد المبني على فهم وإدراك . فمن شاء أن
يُنشر له شيء من ذلك في الطبعة الثانية فليبحث به إلىّ لأعرض على
الناس طائفة من العقول : وكل امرئ بما كسب رهين

*
* *

وإني أقدم الشكر الخالص من شوائب العقوق لأساتذتي
في اللغة والأدب : الشيخ سيد المرصفي ، ومحمد بك المهدي ، والشيخ
علي عبد الرازق ، والشيخ مصطفى القاياتي ، والدكتور أحمد خفيف^(١)

(١) كان ذلك قبل أن يعود حضرة الاستاذ الدكتور طه حسين من فرنسا
واليوم يتشرف المؤلف بأن يضيف إلى أساتذته في اللغة والأدب اسم هذا الباحث
العظيم الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، وطبع الأدب في هذا العصر بطابع القوة والحياة

من النفس الى النفس

[في كتاب « البدائع » كلمة للمؤلف في نقد هذا الكتاب ، رأينا إثباتها هنا يرى القارىء كيف تميز سيئات الكاتب عليه فلا يمجوها ، وإنما يعتذر عنها برفق ليسوغ لها البقاء]

في فبراير سنة ١٩١٩ ألقى ثلاث محاضرات في الجامعة المصرية عن حب ابن أبي ربيعة وشعره ، تحت إشراف الأستاذ الدكتور أحمد ضيف . وقد طبعت هذه المحاضرات بعد إلقامها بقليل . ويرى الناظر في مقدمة الكتاب هذه الكلمة الجريئة :

« وإني أوقن أن في الناس من لا يطرب لهذا النحو من البيان . ولكنى لم أكتبه إلا لمن قدّر له أن يدرك أسرار الجمال ، وهدى الله من يحسب أن التأليف لا يصح إلا في الأبحاث التي تشبه بعض الأذهان في الجمود !! »

وقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وستظهر الطبعة الثانية عما قريب . من أجل هذا أسبقُ النقد إلى بعض المآخذ التي أراني مضطرا إلى إبقائها ، إجلالاً للثقة بالنفس ، وإكباراً لنزق الشباب :

أنظر قول ابن أبي ربيعة

أبرزوها مثل المهابة تهادى بين خمس كواعب أتراب
وهى مكنونة تحير منها فى أديم الخدين ماء الشباب
ثم قالوا تحبها ؟ قلت بهراً عدد الرمل والحصى والتراب
أتدرى كيف علقت على هذه الأبيات الحسان ؟ اقرأ الكلمة الآتية :
« ووجه الحسن فى تحيير ماء الشباب أنك تنظر الى الحدود الموردة ،
فترأها كالشفق تنتقل من تحته الشمس ، أو كالشكاة يتموج فى قلبها المصباح
فى سبيل الحب تلك النظرة يوم رأته وقد أبل من حمى أضرعتة ،
فرايت ماء الشباب يدب فى تلك الحدود وهى صفراء كالورس ، فيعيدها
حمراء كالورد ، وإذا الأنس يتمشى فى فؤادى لشفائه ، تمشى البراء فى
أعضائه »

وهذا استطراد لا يشك القارىء فى أنه غير محمود ، ولكنى
أستغفر الله ! !

وفى موطن آخر يجد القارىء هذه الكلمة :

« لم يكن ابن أبى ربيعة ممن اذا غاب عنه حبيب أخذ فى البكاء
عليه ، والحنين اليه . تلك سبيل الشعراء المفجعين ، الذين كانت قلوبهم
أعواناً للدهر عليهم ، وكانت نفوسهم أخصاماً لهم . أولئك هم المعوزون
فى عالم المحبة ، والمحرومون فى دولة الصبابة . أولئك الذين يرون الجمال

ظالماً ظالماً ، ثم لا يستطيعون أن يتفيثوا ماله من وارث الظلال ، أولئك الذين يحسدون الغلائل على الاعطاف ، والمعقود في النحور ، وكيف يكون ابن أبي ريعة مثاهم مسكيناً في شعره ، وما كان مسكيناً في حبه ؟ أم كيف يصف البكاء والمدامع ، وما أَلَّتْ نفسه ، ولا دَمَعَتْ عينه ؟ بعداً للذلة حتى في الحب ؟ وتباً للمسكنة حتى في الغرام !
وهذه صورة نفسية قد لا يقتضيها موضوع الحديث . ولكن هذا الذي كان :

ويرى القاري في هامش الصفحة الثانية عن ترجمة الشيخ حسين الحكيم مانصه :

« وكان رحمه الله آية الآيات في حُسن الخلق ، وصَبَاحَةِ الوجه ، وأَصَالَةِ الرَّأْيِ ، وحُلَاوَةِ الحديث ، وكان لا يعدله عندى غير شقيقى (سيد مبارك) الذى فقدته معه فى أسبوع واحد . وكان موتهما معاً بالحنى الإسبانية . لا رد الله لها غربة ، ولا قدر لها رجعة . وكان أخى سيد من أقوى الفتيان بأساً وأمضاءً عزيزة ، ولو عاش لضربت بشجاعته الأمثال »

وقد سألتى بعضهم عما يعنى القارىء من هذا التفصيل ، فأجبت :
إنه يعنى مؤلف الكتاب !

ويرى القارىء هذه الكلمة عن عواطف اهل الحضر :
 « وقلما يصدق للحضريين حب ، أو تبقى لهم صباية . إذ يرون من
 متمات الظرف ، ومكملات الأدب ، أن يحبي الرجل بعين باكية ، وقلب
 خفاق ، فلا يزالون يتلمسون الهوى ويتحسسون الصباية ، حتى تُتاح
 لهم أسبابها ، وتساق اليهم همومها
 وأنا الذى اجتناب المنية طرفه فمن المطالب والقنيل القاتل »
 وهذه مسألة فيها نظر كما يقولون

*
* *

ولا أستطيع أن أعد ما فى كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) من
 الهفوات ، ولكنى أحمد الله على أن وفقت إلى تصوير ابن أبى ربيعة
 وتمثيل حياته ، حتى كأنك تراه .

مقدمة الطبعة الثالثة

صارَ جِدًّا ما مزحتُ بهِ رَبِّ جِدِّ جَرَّةُ اللَّعِبِ

إي والله ! فقد كنت ألهو وألعب يوم كتبت ما كتبت عن ابن أبي ربيعة منذ تسع سنين وأنا طالب بالجامعة المصرية ، وليس معنى هذا أنني كنت اتخذ الحب والجمال سبيلا الى العبث والمجون ، كلا ! فقد كان الجمال كما فهمته في ذلك الحين محررا بيا تخشع في مُصَلَّاهُ القلوب ، ولكن معناه انني كنت أقبل على الحب والحسن إقبال الغافل الذي لا يدري ما تكن خمائل الازهار من عاديات الافاعي وقاتلات الصلّال

ولقد أذكر — والنفس تأكلها الحسرة على سذاجة تلك الايام الخالية — انني قلت في أول محاضرة أقيتها عن ابن أبي ربيعة : « إن الحب نفحة من نفحات النبوة » ثم أخذت أقيم على ذلك الأدلة والبراهين ، فعارضني جماعة من المستمعين على رأسهم صديقي الاستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان ، فلما كانت المحاضرة الثانية كنت قد أخذت الأهبة للدفاع عن تلك النظرية ، وكان صديقي قد استقدم طائفة من زملائه علماء الازهر لمعاونته إذا جدد الجد واحتدم النضال ، فما هي إلا أن قلت : « أيها السادة !

لقد أسلفنا في المحاضرة الماضية أن الحب نفحة من نفحات النبوة « حتى انفجر الاشياخ دفعة واحدة مطالبين بوقف هذا الهراء ، فتدخل الاستاذ الدكتور أحمد ضيف وأبان لهم في رفق ودعابة أن الحب « كلام فارغ » واني على خطأ فيما أقول مبين ، وأشار إلى بتخطي هذه الفكرة ، وعلى كل حديث فيه نبوة وأنبياء ، حتى لا يشور القوم من جديد !

وكذلك عرفت لأول مرة بفضل تلك الممارسة العنيفة ، ان الحب مها سمت أغراضه لا يجد من القوة ما يدفع به عدوان الجامدين الذين يحسبون الفضل كل الفضل أن يحيا الرجل بقلب مغلق متباد ، لا يفقه معنى الحب ، ولا يدرك أسرار الجمال ، فعدت الى ما كتبتة عن الحب والنبوة فمحوته كما يمحي الضوء من تجاليد الليل ، وأقبلت على نفسي أعدها للجد الصراح الذي يكبح غمزات اللامزين ، ويردع لمزات اللائمين

ولكن كيف وقد صار الحب في نفسي أخطر أنواع الجدد ، وعادت أرى الجمال الانساني أروع ما في الوجود ، واستطعت أن أقول في مقدمة « مدامع للعشاق » وأنا أقيم الدليل على أن الانسان لباب للطبيعة وسرها المكنون :

« وما قيمة الليل إن لم تُظلني في الحب ظاماًؤه ؟ وما قيمة البدر إن لم يذكرني بالثغر لألأؤه ؟ وما جمال الاغصان إن لم تهزني الى ضم القده »

وما حُسْنُ الازهار إن لم تَشَقْنِي الى لثم الحدود ؟ وكيف اميل إلى الظباء
لو لم تُشَبِّهْ بعيونها وأجيادها مالهجان من أعناق وعيون ؟ وكيف أصبو
الى غنة الغزال لولا ذكرى تلك النبرات العذاب التي يسموها السحر
الحلال ؟ »

وما أنسَ لا أنسَ أن كتاب مدافع العشاق أثار على رجلاً هو منذ
سنين على رأس الحياة العقلية في مصر والشرق ، وأن أستاذي الدكتور
حاج حسين كتب عنه فصلاً في جريدة السياسة فنالت بعلام عفيف ، وكنت
جديراً بالانصراف عن هذا المنحور من البحث ترضيةً لتلك النفوس
النبيلة التي تشفق على من ظلمات الإفك وخنادس الهتان
ولكن كيف وقد صار الحب مرضاً عضالاً لا يُرجى له بُرء
ولا شفاء ، وأصبحت وأصدق ما أحدثت به عن نفسي كلمتي إلى صديق
الاستاذ أنيس ميخائيل حين أقول

« أرجو أن تعلم أن إدباني على الاغتياب بما أودع الله الليل من سحر
يتمثل في بدره المشرق أو ظلامه المسدول ، والاصطباح بمطالعة ذلك
الكتاب الخالد كتاب الوجود ، ودرس مافيه من غرائب الملاحظة وبدائع
الجمال ، أحب أن تعلم أن هذه الحياة الوجدانية ، التي يحياها رجال الأدب
طائعين أو كارهين ، توقد الحس وتلهب الخيال ، حتى ليصبح القلب في

سعير من الظما وهو يسبح في كوثر من النعيم ، ومن هنا تجد من لا يزال
يشكو ويعتب وهو في ظل من النعمة ظليل . وكذلك أحسب أن الطبيعة
مَدِينَةٌ لا عِجَابِي وأحاسيس بما فيها من زهرة تتفتح أو غصن يُمِيد ، وأراى
صاحب الفضل على كل عين ترنو وكل قد يميس . وقد يُلحُّ الأسراف ويلجُّ
الطغيان فأذكر أن يكون غذائى في هذه الدنيا من الخبز والماء ، وتمتد
عيناي إلى انتهاب ما عزَّ واستعصم من أسالة الحدود ، ورشاقة القدود ،
وتسمو نفسى الى اقتناص ما ندَّ من شوارد المني وأوابد الآمال ،
ويتمرّد قلبي كلما أحسَّ سائحة تمنع ، أو قناة لا تلين . ولو شاء الحسن
لبطش بمن لا يؤمنون بأن له وحده العزة والجلال ، وصمق من لا يسبحون
له في الغدو والآصال ، ولكن حاشاه أن ينفّرني من رياضته وأنا شاعره
ومجنون ليلاده ، أو يذودني عن حياضه وأنا حارسه والساهر على حماده .



إذن لا مفرّ من العودة الى ابن أبي ربيعة، أو صف الشعراء لربّات
الحجال !

ولكن كيف نعود إليه ؟

الامر يسير ! ألم تنفذ الطبعة الثانية من كتاب (حب ابن أبي ربيعة
وشعره) ؟ فلنطبعه من جديد ، وفي هذا كفاية لمصاحفة شاعر الحب والجمال

ولنتهز هذه الفرصة لتتكلم جادّين أو مازحين عن العشق والصبابة والحسن والصباحة ، ولنقلّب هذه الكلمات على جميع وجوهها ولنطال فيما تتصل به من رجْد القول وهزله ، وحلوه ومره ، ولنجلّ صدأ النفس بتصريف هذه البضاعة التي سمعت غير مرة انها نوع من اللغو ، وضرب من الهراء وأنها شغل من لا شغل له من كل فارغ الرأس دقيق الاحساس حسن ! فانكتب على بركة الله، أو على وجه الحب مقدمة للطبعة

الثالثة !

ولكن ماذا نقول ؟ لا بدّ من جديد ، فان قراء اليوم لهم نيات أشدّ تعقيداً من ضمائر الوشاة ، ولهم أبصارٌ أحدٌ من عين الرقيب ! وبيننا أنا أعد نفسي لكتابة هذه المقدمة مرت بي حوادث خطيرة زادتني ثقةً بأن بني آدم كأنما خلّقوا ليبغى بعضهم على بعض ، وليكون أشرارهم حرباً لأخيارهم ، ولتكون كرائم الخلال من المودة والوفاء والاخلاص براقع يلبسونها ليخفوا ما فطر عليه لثامهم من الغل والحقد ، وما درجوا عليه من الآثم والبغى والعدوان وكذلك أمضيت ثلاثة أسابيع أفكر في أناسٍ سقيتهم الشهد فسقوني العلقم ، وأصفيتهم الود فأصلّوني نار الجحود ! والآن أستطيع أن أتقدم اليك أيها القارىء بشيء جديد !

أندري ما هو؟

أستطيع أن أقول لك : ان هذه الحياة أغلى وأثمن من أن أتبيع
في معاشرة حاسدٍ لئيم العم والخال ، أو محاورذ غبيٍّ قُدَّ رأسه من الفلانة ،
ورِصِيعَ عقله من الهباء ، أو مصاحبة صديق يتجننى عليك وهو يعلم أنك
في طهر الملائكة ، ونبل الأنبياء

وستقول : أهذا جديد؟ ألم يقل به فريق من الفلاسفة قبل اليوم ؟
وأجيبك بأن ابن أبي ربيعة نفسه جهر بما يشبه هذه الدعوة ،
والمتبني زاد عاينها حين قال في السخر من ملاحاة الملاح :

مِمَّا أَضُرَّ بِأَهْلِ الْعَشْقِ أَنَّهُمْ هَوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلَا فُطِنُوا
تَفَنَّى عَيُونُهُمْ دُمْعًا وَأَنفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنٌ
تَحَمَّلُوا حِمْلَكُمْ كُلَّ نَاجِيَةٍ فَكُلَّ يَوْمٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمِنٌ
مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مَهْجَتِي عَوْضٌ إِنْ مِتَ شَوْقًا وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنٌ
فَلْيَكُنْ هَذَا جَدِيدًا عَلَى وَحْدَى أَيُّهَا الْقَارِئُ ، وَلَا أَكْتَفِ بِالْإِبْهَالِ
إِلَى اللَّهِ أَنْ يَهْبِكَ مِنَ الْبَصَرِ بِالطَّبَائِعِ وَالْخِلَائِقِ مَا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
السَّكُونِ إِلَى وَرْدٍ يَحْلُو يَوْمًا لِيُمرَّ أَعْوَامًا ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى نَفْسٍ
تَصِفُ لَحْظَةً لَتَكْدُرُ دَهْرًا ، وَالرِّضَا عَنْ حَظوظِ هِيَ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ مَطَامِعِ
وَأَهْوَاءِ ، وَفِي نَظَرِ الْعَمَلِ مَصَائِبِ وَأَرْزَاءِ ۝

إذن لم يكن إدماني على كأس الحب شرًّا كله ، ولا إسرافى
 في رعاية الحسن إنما كله ، بل أستطيع بعد اليوم أن أعد غوايتى هدى ،
 وإن أحمد الله على أن جعل لى فى ظلال الحسن مقيلاً أنسى فيه لفحات
 الأسى رلذعات الأشجان

ولكن أين مواسم ابن أبى ربيعة ؟ أين مناسك الحج حيث
 تُعرض نفائس الجمال ، وروائع الحسن ، وغرائب الملاحاة ، من
 الحجاز والشام والعراق ؟

الله كريم ، كما يقول الأتراك :

فانه حين خلق الطرف الجامح ، والقلب الخافق ، أنشأ بجانبهما
 فى كل بقعة وفى كل زمان ، ملاعباً للغيرد ومراتع للظباء 11

هو إذن رأى أدين به ، وأذهب إليه ، فاست والله سبيء القصد ،
 ولا أسود الغرض ، ولا أنا ممن يعيشون فى الأرض ويهتكون
 الحرمات ، فليطمئن أساتى المشفقون على من تقول المفتين ، وتزيد
 المعتدين ، فقد صممت منذ زمان على أن أساير الفطرة ، وأجارى

الطبيعة ، وأن أقف حيث يقفنى وحى الواجب ، وصوت الضمير
 وإن الموت لأحبُّ إلى من أن أكون رجلاً يُقال له كُنْ فيكون ،
 فإن عشت صاغت الثرياً وإن أمتُ فإن كريماً من تضم الصفائح



وبعد فقد رأيت أن أضيف إلى هذه الطبعة فصولاً عن حب ابن
أبي ربيعة وشعره أفصل بها بعض ما أجملت في تلك المحاضرات الثلاث
فأثبت رأيته التي أعجب بها ابن عباس مصحوبة بالشرح والتفسير ،
وأترجم مصعب بن عبد الله الذي انفرد بين القدماء بتقديم مزايا شعره
إلى الجمهور ، وأنحدث عن معشوقاته اللاتي أضرنَّ في قلبه نار الحب ،
وهدينه إلى سواء النسيب ، وأذكر بعض الفكاهات التي اتصت به
وجرت مجرى الأمثال

غير أني أحب أن انتهز هذه الفرصة لأعرض لك رأيي في إيثار
الأدب المكشوف ، إذ كنت واثقاً من أنك ستري في جملة هذا
الكتاب ما أخشى أن تتخرج منه ، أو تنسرك له ، مع أن الأدب
كالفن يجب أن يسمو عن الأوضاع والتقاليد ، حتى لا يفتر ويضوى
بوضعه تحت رحمة المتزمِّتين من رجال الدين ، ورعاية المتحرِّجين من
دعاة الأخلاق

ألا ترى أنك لو عمدت إلى امرأة جميلة فصورتها وهي في لباس
المصرية أو الفارسية أو التركية أو الانجليزية أو الألمانية لكان لذلك

اللباس أثر سيء في وضع تلك الصورة في حدود ضيقة تحبسها حيث يليق ذلك الزى ويُقبل ذلك الهندام ؟ ولكنك لو صورتها عريانة حيث صاغها الحسن ورسمها الدلال لبقيت « انसानة » تروق الانسانية في جميع البقاع

ولأمر مآ وضع الأقدمون « قينوس » عارية الجسم ، غانية عن الحلي واللباس ! إنهم وضعوها كذلك لتبقى مُنية الأفتدة ، ونُبهة العيون ، في جميع الممالك وعلى اختلاف الأجيال

وكذلك الأدب يسمو بقدر ما يتحرر من قيود الزمان والمكان ، فالقصيدة أو الرسالة التي تعبر عن معنى من المعاني الانسانية أبقى على الدهر من التي تعبر عن نزعة مصرية أو انجليزية ، فان النزعات الموضوعية عرضة للتغير والزوال ، ولكن الميول الانسانية جديرة بالخلود ، والأدب المستور انما يُغشى بالحُجب المحلية التي لا ندرى أتبقي سائغة مقبولة ، أم يعدو عليها البدع المستطرف فيلقى بها في مهاوى الخمول ! ولقد ظن الناس ، حين شاهدوا المناظرة التي قامت بين الأستاذ سلامة موسى والأستاذ توفيق دياب ، أن هذه أول مرة يختلف فيها أدباء اللغة العربية في المفاضلة بين الأدب المستور والأدب المكشوف ، ولكن الواقع أن هذه المسألة بعينها كانت مثار الجدل عند المتقدمين

تحت اسم آخر هو الخصومة بين من يوجبون أن يكون الكلام جذا
كله ، وبين من يؤثرون أن يمزج حيث يقتضى الحال بشيء من
الدعابة والمجون

ولو عدنا إلى رجال الأدب في تلك المصور التي نهضت فيها اللغة
العربية ، ولفتت أنظار العالم في الشرق والغرب إلى ما فيها من عناصر
القوة وأصول الحياة ، لوجدنا أكثرهم من أنصار الأدب المكشوف ،
فهذا أبو الفرج الاصبهاني يودع كتاب الأغاني كل ما عرض له من
أخبار الخلفاء والشعراء والكتاب بعبارة حرة صريحة مكشوفة لا يشغلها
قيد ولا يحجبها قناع ، وهذا النويري يكتب نهاية الأرب بحرية
خالصة لا يشوبها تحرج ولا يحدّها تنسك ، وهذا الجاحظ يأتي أن
يحرم القارىء من ثمار اطلاعه التي جمعت ما تفرق من شهوات العقول ،
وهذا الثعالبي يُفِرط في تصيد ما شرد من روائع المأخ والفكاهات
ونوادير الساسة والملوك ، ولا ننس ابن منظور الذي أشعر الناس بأنه
جبار أهل الجدّ حين وضع لسان العرب ، ثم رجع فراعهم بدعابته حين
وضع أخبار أبي نواس

على أنه من الخير أن تقدم للقارىء بعض ما يقوله هؤلاء الأفاذا
في إشار الأدب المكشوف ، ولتكتف بقول ابن قتيبة في مقدمة
عيون الأخبار :

« وسينتهى بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما ، فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به

واعلم أنك إن كنت مستغنيا عنه بتفشك فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه ، وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيها على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توفى المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل عليه معك

« وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدك وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم وإنما المأثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب وأكل خوم الناس بالغيب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تعزّى بعزاء أهل الجاهلية فأعضوه بهن أيه ولا تكنوا » وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لبديل بن ورقاء — حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ان هؤلاء لو قد مسهم حز السلاح لأسلموك — : « اعضض بيطر اللات ،

أُنحن نُسامة ؟ » وقال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه : « من يطل
أير أبيه ينتطق به » وقال الشاعر في هذا المعنى بعينه :

فلو شاء ربي كان أير أبيكم طويلاً كأير الحارث بن سدوس
قال الأصمعي : كان للحارث بن سدوس أحد وعشرون ذكراً

وقيل للشعبي : ان هذا لا يجيء في القياس ، فقال : أير في القياس ، الولد ذكر
« وليس هذا من شكل ما نراه في شعر جرير والفرزدق لأن ذلك

تعبير وابتهاز في الأخوات والأمهات وقذف للمحصنات الغافلات ،
فتفهم الأمرين وافرق بين الجنسيتين . ولم أترخص لك في إرسال اللسان

بالرفث على أن تجعله هجيراً لك على كل حال ، وديدنك في كل مقال ، بل
الترخص مني فيه عند حكاية تحكيها أو رواية ترويها ، تنقصها الكناية

ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن نجري في القليل من هذا على عادة
السلف الصالح في إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء

والتصنع ، ولا تستشعر ان القوم قارفوا وتنزهت ، وثاموا أديانهم
وتورعت »

ومن هذه الكلمة نرى ابن قتيبة يقيد الأدب المكشوف بقيد واحد
هو أن لا يكون « تعبيراً وابتهازاً في الأخوات والأمهات وقذفاً
للمحصنات الغافلات » ونراه ينهي عن أن يكون ذلك النوع ديدن

الكاتب وهجّيراه ، ويحصّره في المواطن التي تنقصها الكناية ويذهب
مخلاوتها التعريض ، وكذلك يرى اليوم أنصار الأدب المكشوف ،
فهم لا يريدون أن يفرغوا للهزل والعبث ، وإنما يريدون أن يعطوا كل
مقام حقه من الحلاوة والمرارة ، أو الشدة واللين .



أشرت إلى أن من رجال الأدب من عمل وهو كاره على إظهار
الأدب المكشوف ، ذلك بأن الجذ المطلق ينافي طبيعة الحياة ، فلا
يحسب أنصار الأدب المستور أنهم يستطيعون المضيّ إلى النهاية في ذلك
الطريق ، فقد أراد صاحب زهر الآداب أن يصون كتابه عن ذكر
طائفة من الشعر الصريح ، ولكنه غلب على أمره في مواطن كثيرة
فأباح ، ألم يكن يبيع من فنون اللهو والمجون
خطر له مرة أن يتكلم عن التضمين فضرب المثل بمن قلب قول
النابغة « كالأقحوان غداة غب سماءه » فقال في الهجاء ^(١)

ياسائل عن جعفر عهدى به رطب العجان وكفه كالجامد
كالأقحوان غداة غب سماءه جفت أعاليه واسفله ندى

ومع اننا لانسيغ هذا الضرب من الكلام فقد وصفه بأنه « جاء
مليحاً في الطبع ، مقبولاً في السمع »
وأراد مرة أخرى ان يتكلم عن محاسن الجوارى السود فساق
قصيدة ابن الرومي في جارية عبد الملك ابن صالح وفيها هذه الأبيات
في وصف محاسنها الباطنة ^(١)

لها حرٌّ يستعير وقْدتهُ من قلب صبٍّ وصدر ذى حنق
كأنني حرُّدٌ لخايرٍ ما ألْهبت في حشاه من حرق
يزداد ضيقاً على المراس كما تزداد ضيقاً أنشودة الوهق ^(٢)
وفي موطن آخر ذكر قول ابن الرومي يصف هن امرأة ^(٣)
يسع السبعة الأقاليم طراً وهو في اصبعين من اقليم
كضمير الفؤاد ياتهم الدنيا وتحويه دفئا حيزوم
وساقه الكلام عن تأصل الشاعرية في صدور العرب إلى الفكاهة الآتية ^(٤)
« قال اعرابي لشاعر من بني الفُرس : الشعر للعرب ، فبكل من
يقول الشعر منكم فأنما نزا على أمه رجل منا . فقال الفارسي : وكذلك من
لا يقول الشعر منكم فأنما نزا على أمه رجل منا ! »

(١) ٢٠٩ ج ١ (٢) الوهق : الخبل يرمى في أنشودة فتؤخذ به الدابة والانسان
والأنشودة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة (٣) ص ٩٣ ج ٢ (٤) ص ٥١ ج ٣

وأراد أن يذكر ألفاظ أهل عصره في محاسن النساء ، فرأى من
تتمة البحث أن يورد أيضا ألفاظهم في محاسن الغلمان ، وأتى في هذا
الباب بطائفة من التعابير المختارة التي تهيج الحواس وتوقظ ماخذ من
نزوات الرووس^(١) وقد أخذ يبدى ويعيد في هذه المعاني كلما سئحت له
الفرصة وساقه الحديث ، حتى لنعد من ألف ما رواه قول أبي نواس :
ومنتظر رجع الحديث بطرفه إذا ما انثنى من لينه فضح الغصنا
إذا جعل اللحظ الخفي كلامه جمعت له عيني لتفهمه أذا
وانما قدمت للتقارى هذه الشواهد من زهر الآداب ليرى كيف
فعل أحد المؤلفين المتخرجين الذين يفرقون بين ما يباح وما لا يباح ،
وها نحن أولاء نرى ذلك المؤلف لا يستطيع الصبر على تقييد الأدب بما
تتأثر به الأذواق من الأوضاع والتقاليد . ولقد ذكرنى ذلك
باللوحات التي يراها الناظرون في حديقة لكسمبور وغابة بولونيا في
باريس ، ففي كل ركن لوحة فيها انذار بالطرد لكل من يخرج على
حدود الأدب والاحتشام ، وفي كل مكان من تلك الملاعب قد يضم^١ ،
وتغرى^٢ يرشَف ، وجرى^٣ يباح ١١

*
* *

وقد جاء في خطبة الأستاذ توفيق دياب ان الأدب لا يراد لذاته وإنما هو وسيلة إلى الأخلاق ، وأذكر انه قال في شيء من الاتصال :
فليسقط الأدب ان أضرب بالأخلاق . ويغلب على ظني ان الأستاذ دياب لم يقل العبارة الأخيرة إلا مبالغةً في الدفاع عن رأيه والدعوة اليه ، لذلك أرجو أن يرى معنا انه لا غنى للأمم الحية عن الآداب والفنون ، بغض النظر عن قربها أو بعدها من الأخلاق . فلننظر معاً برفق وبإخلاص إلى تأثير الدين والأخلاق في اتخاذ الآداب والفنون :

لا ينكر أحد ، ولو أسرف في التكاف ، ان تحريم الاسلام للتصوير جنى على الشعوب الاسلامية جنابة عظيمة ، وعطل مواهبها الفنية ، وحشرها في زمرة المتخلفين عن فهم أسرار الجمال . ولا ينكر أحد ، ولو أمعن في التعصب ، ان تحطيم العرب للأنصاب والتماثيل التي كانت تفصح وتبين عن أساطير الأولين إنما كان أثراً للتخرج الذي دعاه اليه الدين . ولولا بقية من سلامة الذوق وصيانة من صدق الحس لما رأينا في الشعوب الاسلامية ميلاً إلى روعة الفن ولا كلفاً بآثار المبدعين .

وسيسأل القارئ : وما الذي خسره بانصراف المسلمين عن النحت والتصوير ؟ ونجيبه بأننا حرّمنا بذلك من الوقوف على ميولهم وغرائزهم وسجايهم . فلو تركهم الدين أحراراً في شرح ألوان حياتهم

لرأينا كيف كانوا يلعبون وكيف كانوا يحدّون ، وكيف كانت تخبّش
بصدورهم هواجس المنى ونوازع الآمال . واسكنه قيدهم فلم يتركوا لنا
إلا آثاراً ضئيلة لا تمكّن في كشف ما كانوا يضمرون

ولقد أبيع لهم في سبيل الترغيب والترهيب أن « يشكّموا » عن
نعيم الجنة وعذاب السعير ، فتركوا لنا طائفة من الآمال والمخاوف
تمثل ما كانوا يرجون ويترهبون ، فمرقنا مثلاً لهم بحكم مركزهم الجغرافي
الأول قبل أن يخرجوا من جزيرة العرب كانوا من آلام الظأ والجوع
في كرب عظيم ، ألا ترى كيف يذكرون أن أول ما ينعم به أهل الجنة
هو الكوثر ، والكوثر نهر حذب ينهل منه الوارد نهلة فلا يظأ بعدها
أبداً ، وعبارة « لا يظأ بعدها أبداً » تمثل أقصى ما يتمناه البدوي في
الصحراء وقد نفخته السموم وصهرته الرمضاء . ولك أن تقول مثل
ذلك فيما تحدّثوا به عن عذاب القبر إذ تراهم يتصورون المذنب وقد
أحدقت به الحيات والثعابين ، وأنه لدليل على ما كانوا يقاسون في البادية
من عنت الأفاعي والصلال

افهم هذا أبها القارئ واستغفر الله لي ولك ، فإن مناهج البحث
الحديث لا تسمح بالوقوف عند معاني الحروف كما كان يفعل
المتقدمون

ولو عدنا إلى الشعر لرأينا أثر المتزمتين في اخماده كان غاية
 في الشناعة والقبح ، فقد عرّض النبي بالشعر وهاجم الشعراء متأثراً
 بعداوة من عاداه من شعراء قريش وشعراء اليهود ، فكان من ذلك
 أن أسرف جمهور المسلمين في بغض الشعر والنيل من الشعراء ، وقد
 سئل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتعول الشعر في فتهك وورعك ؟
 فأجاب : لا بد للمصدر أن ينفث ! وهذا الفقيه هو صاحب هذه
 الابيات الرائعة :

شقت القلب ثم ذرت فيه هواك فليمَ فالتأم الفطورُ
 تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
 تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور
 وقد زعموا أن الامام الشافعي قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لمبيد
 وكذلك زعموا قائلهم الله أن النى لم يكن يقرأ بيتاً من الشعر
 إلا كسره ، وذلك غاية الإفك والبهتان ، ولا يزال شيوخ الأزهري
 مختلفين في بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون ليس من الأمور
 ذوات البال !

وهذا الاتجاه الذي تورط فيه الجمهور الاسلامي ضد الشعر أتاح

(٣٣)

لنا طائفة من الفكاهات ، فقد قيل لابن سيرين : ان قومًا يزعمون

أن انشاد الشعر ينقض الوضوء ، فأنشد :

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزًا

ولورضيت رشح أسته لاستقرت

وقام يصلى وقيل بل أنشد :

أنبت أن عجوزًا جئت أخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأنشد

وهنّ يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير نك لميسا

وقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة !

وقيل لابي السائب المخزومي : أترى أحداً لا يشتهي النسيب ؟

فقال : أما ممن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا !

ولولا خوف الإطالة لأريت القارىء كيف أثر التخرج في قتل

سائر الفنون . فلا أكتف بما أسلفت ، ولأشر فقط إلى أن جنابة

التخرج لم تقف عند الأدب والفن ، بل طغت على العلم أيضا ،

(٣٤)

فقد كان الغزالي يكره التشريح لأنه يذهب بفريق من العلماء
إلى أن النفس تموت !!!

ولو أن الدين والخلق وقفا عند حدود العقل خفف الأمر
وهان ، ولكنهما صارا سناداً لكل ضعيف الحجة سقيم البرهان
فلنعلن حرية الآداب والفنون ، وليرض من شاء بالجهالة يحرسها
الدين وتحوطها الأخلاق ،

زكى مبارك

٣ رمضان سنة ١٣٤٦

٢٤ فبراير سنة ١٩٢٨

مصر الجديدة

